مدرسة المواطنة والحرية

بيار أبي صعب

كلّما عاد روجيه عسّاف إلى المسرح، مخرجاً أو ممثّلاً، أو الاثنين معاً، كانت العودة حدثاً بحدّ ذاتها، ومناسبة للاحتفال. نحتفل، حتّى قبل أن نشاهد العمل، والمعروف أنّ الأعمال الفنيّة التي تُنتَج اليوم في مدينة كبيروت، بإمكانيّات المدينة ومع ناسها، عرضة لكل المخاطر والأنواء والرياح. الفكرة هي أن تخيّم على مسرحنا قامة هذا «القديس»، أو «الوليّ الصالح»، مؤسس «مسرح الحكواتي»، وقد ازداد جلالاً وتعباً مع السنوات. الفكرة أن صنّاع العصر الذهبي لبيروت، لم يغيبوا كلّهم، أو يصمتوا، أو يستسلموا، أو ينقلبوا على تاريخنا وذاكرتنا. نذهب الليلة إلى «الطيّونة» ونحن نقول لأنفسنا إن الدنيا بألف خير، رغم كلّ شيء. إن الأشياء ما زالت ممكنة في هذا الزمن العقيم، المشلّع. إن القيم التي كافح لارسائها روجيه منذ عقود عدّة، مع حفنة من النساء والرجال، ما زالت راهنة، ويمكن أن نتشاركها مع أهل الحاضرة... وإن المشروع الذي منحه عمره هذا المثقف العضوي الآتي من الفرنكوفونيّة ـ تركة الاستعمار ـ إلى قلب العروبة والاسلام، ومعارك التحرر، والإنتماء إلى الناس وذاكرتهم الجمعيّة، هذا المشروع ما زال قابلاً للاستمرار والتجدد والانتقال إلى الأجيال الجديدة.

هذا هو الرهان الأساس لدى روجيه عسّاف، ولعلّه يختصر كل مسيرته المسرحيّة. في اعتقادنا أن الجماليّات، والتقنيات، والأساليب والمدارس، والمشاغل الثقافيّة والادائيّة والدراميّة، تأتي بعد ذلك. المسرح هنا مدرسة المواطنة، ومختبر لمستقبل نهضوي، وبلد على مقاس أهله. المسرح العسّافي مكان «لقاء» الممثلين والممثلات، القادمين من كل الجهات والشرائح، ليتبادلوا الأحلام والأوجاع والمشاغل، ليحفروا معاً في اللاوعي أو في الحاضر وأسئلته، ويفكروا وينفعلوا ويبدعوا، ليستعيدوا ذواتهم الحقيقية المغيّبة في مدينة السماسرة والقتلة والخراب العظيم. كل السر في طريقة عمل روجيه مع ممثليه وممثلاته. في ما يقترحه عليهم ويطلبه منهم. الفن هنا لم يعد سلعة واستعراضاً، ولا تجربة ابداعيّة «مجّانيّة»، ولا خطاباً أسلوبياً وتسويقياً ستتنافس عليه مهرجانات الرجل الأبيض... الفن مشروع ولادة جديدة. والمسرح العسّافي أيضاً، هو أرضيّة التماس والتفاعل بين صنّاع العمل وجمهوره: هؤلاء الرجال والنساء الآتون للبحث عن ذواتهم، واستعادة صوتهم المصادَر، وهويّاتهم المهدورة. من تلك العلاقة تولد روح المسرحيّة!

كل هذا سنجده الليلة في «طروادة»، تجربة روجيه عسّاف الجديدة، مع باقة من الممثلين والممثلات الشباب. غرف المعلّم من معين المسرح الاغريقي، هو المنكب منذ سنوات على اعادة قراءة تاريخ المسرح العالمي، على طريقته كفنّان القطيعة مع الأنماط المهيمنة، ومن زاويته التحليليّة النقديّة (صدرت أجزاء من موسوعته بالعربيّة عن «دار الآداب»، والجزء الأوّل بالفرنسيّة عن L'Orient des livres). ليطلع بنص لبناني في الصميم، وعربي بامتياز. فلنذهب مع حصار طروادة «حتى نهايات العواصم» كما كتب محمود درويش في «أحمد الزعتر». المسرح مع روجيه، مدرسة المواطنة والحريّة.

فنون مشهدية

«حرب طروادة» تنطلق الليلة في «دوار الشمس»

روجيه عساف الشاهد الملك

في «دوار الشمس»، يستكمل مسيرته التي بدأها قبل نصف قرن. مسرح «ملتزم» يقوم على الذاكرة والانشغالات والاهتمامات الجماعية. ذو جذور متأصلة في التربة المحلية، وحامل لقضية إنسانية. بعدما قدم أداء استثنائياً في «الملك لير» العام الماضي، يوقع هذه المرة إخراجاً وكتابة مسرحية «حرب طروادة» التي نشاهدها بدءاً من الليلة. يعود عساف إلى إحدى أشهر الحروب في التاريخ، كما لو أننا أمام جسر ممتد وموصول براهننا العربي: حرب عرقية ودينية وثقافية، نزاع سياسي اقتصادي، مدينة مدمرة، خسائر في صفوف المدنيين، شعب مهجر...

عبدالرحمن جاسم

هو ليس مخرجاً. لا يعرّف عن نفسه كذلك: «أنا ممثل أولاً وآخِراً»، هكذا يقول حال جلوسك معه، ناهيك بأنه بحسب توصيفه «ممثل شاطر». إنها الفكرة التي يمكن أن تراها في مختلف أعماله، حتى تلك التي كتبها وأخرجها (تفوق الأربعين عملاً). المسرح ليس فناً فقط عند روجيه عساف (1941). إنه الكثير من الإخلاص والاندفاع وفوق كل هذا: إظهار وتمظهر للقضية المركزية التي يؤمن بها.

كيف يمكن لصفحاتٍ قصيرة أن تختصر ملامح تجربة روجيه عساف العائد هذه الأيام عبر مسرحية جديدة هي «حرب طروادة» التي تنطلق الليلة في «دوار الشمس»؟ من شاهده قبل مدّة في أدائه دور «الملك لير» (الأخبار 2016/12/3) يدرك تماماً أي نوع من «المؤدين»، وأي نوع من «أساتذة المسرح» هو. اليساريّ الجميل، الذي حمل السلاح يوماً ولم يحمله في آنٍ، الذي أخذ أفكاره الطليعية إلى الخشبة مدفوعاً بقضية ورؤية عن مسرح شعبي ملتصق بالناس وذاكرتهم الجمعية، استثمر سنين عمره الطويلة في المسرح، قدّم «ليراً» يختلف عن أي ملكٍ قد شاهدناه من قبل. في الإطار عينه، قدّم عالماً يشبهه هو أكثر من أي شخص آخر؛ حتى إنّ كل مَن تابع مسرحيات شكسبير، يدرك تماماً أن «الملك» (وليس لير هذه المرة) أعطى ـ كممثل ـ بطريقةٍ يصعب لا تقليدها فحسب، بل تكرارها أيضاً.

لم يحصل روجيه عسّاف على الدكتوراه في المسرح، لكنه صنعه، علّمه أكاديمياً، كوّنه كما يحب. وفوق كل هذا، استطاع ربما للمرة الأولى في المسرح اللبناني (والعربي عموماً) أن يخلق مسرحاً عربياً طليعياً يقارب فئات المجتمع، يتحدّث عنهم وحولهم: مازجاً بين لغة شكسبير والحواري الشعبية، موسيقى الصالونات والغناء الشعبي الحميم والعفوي، المنطق التجريبي البسيط والحرفة المسرحية العالية.

الممثل المسرحي الذي دخل عالم التمثيل هواية، لم يكن يتوقع أن يصبح إحدى علامات المسرح الحديث في العالم العربي، هو الذي دخل هذا العالم الجديد عليه على حد تعبيره وهو لا يزال حدثاً (في السابعة من عمره للمرة الأولى على مسرح المدرسة). كانت التجارب المسرحية في لبنان ـ كما الصنعة ـ في خمسينيات القرن الماضي محدودةً، أو تؤدى باللغة الفرنسية، بمعنى آخر: لم تكن هناك تجارب عربية البتة. هنا كان عساف أمام قضيةٍ أشد تعقيداً، ليس كيف نخلق مسرحاً عربياً فحسب، بل كيف نخلق تجربةً عربيةً تشبه الناس، تشبه من نتحدث عنهم، ومن نمثلهم، خصوصاً أنّ المسرح يجب أن يكون «شبيهاً» بالناس وبقضاياهم؟ عساف يؤكد دائماً بأن القضية عنده أهم من المسرح، حتى إنه في لحظةٍ ما ترك المسرح (لأكثر من خمس سنوات كاملة) ليراكم ويمارس عمله «الثوري ـ الثقافي» العضوي بين الناس، فغادر إلى الأردن في فترةٍ ما، وعمل في الجنوب اللبناني مع الناس وبينهم.

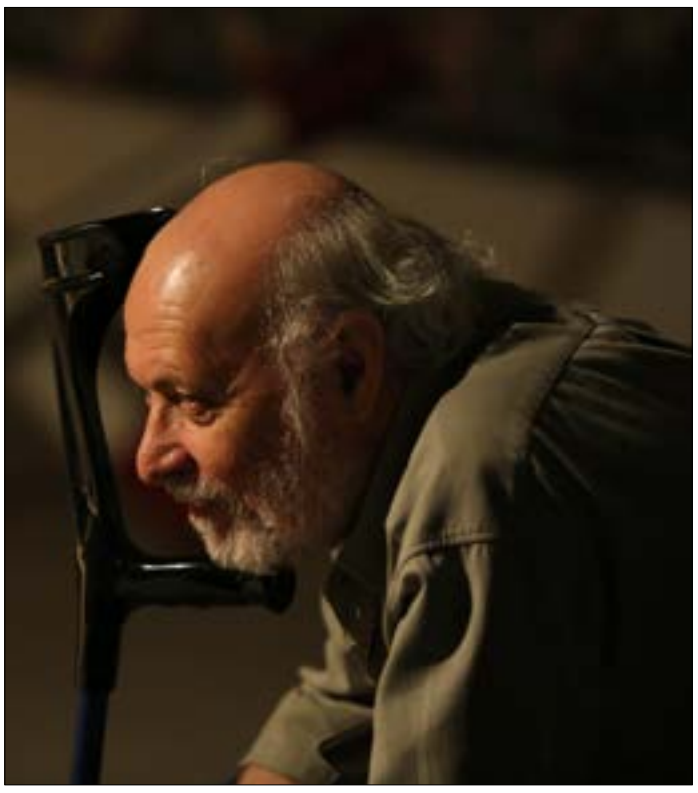

مسرحياً قارب التجريب، هو الذي لا يخاف أبداً أن يجرّب الجديد (الأخبار 2014/2/13). لم يكن كلاسيكياً منذ البداية، فكيف يمكن أن يصير هكذا الآن؟ اخترع في لحظةٍ ما مسرحه الخاص، لغته المسرحية الخاصة، طريقته في تقديم الممثلين وحركتهم. هو إذاً يعشق المسرح بطريقته، بأسلوبه الخاص. لذلك، لم يكن غريباً اليوم على صاحب «الجرس» و«آخ يا بلدنا» و«حبس الرمل»، «المغنية الصلعاء»، أن يعود إلى المسرح اللبناني/العربي من خلال «حرب طروادة» التي تحاكي الحرب الاغريقية الشهيرة. لكن لماذا اختارها المخرج المسرحي الكبير؟ «بعد انتهاء مسرحية «الملك لير» (مع المخرجة سحر عساف)، طلبوا مني تنظيم ورشة تدريبية (Master Class)، فوافقت. قلت لهم بأننا سنقدم مسرحاً يونانياً (تراجيديا يونانية)، فوافقوا وقررنا القيام بهذه المغامرة». طبعاً المسرحية ليس لديها ممول، يؤكد عساف: «قررنا أن نقدم المسرحية ولو من دون ممول. نسدد تكاليفها من مردودها، ثم إن انتاجها لم يكن مكلفاً». بدأ العمل على «حرب طروادة» بدايةً منذ شهر أيلول (سبتمبر) الفائت، وهي عبارة عن مزج لثلاث مسرحيات إغريقية معروفة («إفيجينيا في أوليس»، «الطرواديات» و«أجاممنون») تتناول الحرب الإغريقية -الطروادية منذ بداياتها حتى نهاياتها. إذ تنحى المسرحية (كتابة وإخراج روجيه عساف ـ أداء ماريليز عاد، نزهة حرب، سهى نادر، ضنا مخايل، بشارة عطا الله، فاطمة الأحمد، سني عبد الباقي، هادي دعيبس، جوزيف زيتوني، باسل ماضي، عبد الرحيم العوجي، أحمد غزال) للحديث عن اختطاف الملكة الأسبارطية هيلين من قبل أمير طروادي، مما أشعل حرباً تنتهي على عادة الدراما الإغريقية بقتل معظم الأبطال وتشريدهم. هل هناك رسالة خفيّة خلف المسرحية؟ بالتأكيد هناك رسالة، فمن يدرك أسلوب عساف في العمل، يعرف أنّ

شوشو... تجربة على حدة

يشير عسّاف إلى أنّ مسرح «شوشو» (الفنان اللبناني حسن علاء الدين 1939-1975) كان مختلفاً عن غيره. مسرحٌ قائمٌ بحد ذاته على أحد مؤسسي المسرح الوطني الشعبي ورواده. يوم قررا العمل معاً (أي روجيه وحسن علاء الدين)، حدث اللقاء بين عقليتين مختلفتين. أصر عساف على أن يضيف إلى العمل (آخ يا بلدنا) نظرته الخاصة وتقنياته. كانت «آخ يا بلدنا» مأخوذة عن مسرحية «أوبرا القروش الأربعة» لبريخت، الذي بدوره أخذها عن مسرحية «أوبرا الشحاذين» لجون غابي. «كان شوشو معتاداً تقنياً على العمل وحيداً، أنا غيرت هذا الشيء، من خلال إيجاد فرقة تعمل حوله. أنتجت هذه المسرحية مجموعة من النجوم المحليين مثل أحمد الزين وزياد مكوك وغيرهما». يقول عساف مشيراً إلى أنّه يتعمد أن يعطي كل شخص دوره وأهميته محاولاً خلق علاقات بينهم كشخصيات. «في البداية، لم تعجب هذه التغييرات شوشو، ولم يتعود عليها بسهولة، لكنه سرعان ما اندمج بها، وأحبني كثيراً وأحببته، وظلت العلاقة جيدة جداً معه حين قدمنا لاحقاً مسرحية «خيمة كراكوز» (1974) وصولاً حتى وفاته». يؤكد عساف: «لكن أكثر ما يمكن تذكّره عن شوشو أنه كان يبكي حال انتهاء العرض، كان يبكي كثيراً، كان يعيش في المسرح، كان المسرح دواءه وحياته».

القانون ختم وبرنيطة

في عام 1972، ترك روجيه عساف المسرح لينخرط مرة أخرى في العمل الشعبي المقاوم. يومها ألح عليه أهل قرية عيناتا الجنوبية التي كان فيها أن ينجز مسرحية معهم. حاول إقناعهم بالعدول، لكنهم كانوا مصممين. كانت خطته بسيطةً: أن يتركهم يحكون له حكاياتهم وقصصهم، فيحوّلها إلى مسرحية. هذا ما حدث. «قلت لهم بأنني لن أنتج المسرحية، بل أنتم من سيفعل، فكانت إجابتهم بأنهم لا يعرفون، فقلت لهم إنكم أنتم من يعرف، أنا فقط سأدير العمل، وأنتم ستبدعون. استغرقت الفكرة سنتين من التنفيذ. أخذوا يروون لي قصصاً عن حياتهم وماضيهم».

كانوا هواةً لكنهم كانوا يجيدون المسرح بالفطرة ـ يقول عساف ـ يروون قصصاً عن الجنوب والقصف وبيوتهم المدمّرة، والفساد المستشري. في البداية، كانت الفكرة أن تشارك في المسرحية مجموعة من الممثلين المسرحيين أو ممن لديهم خبرة في المسرح (من سكان المنطقة)، لكن سرعان ما أحب «كتّاب» المسرحية ورواة القصص فيها التمثيل، فأدوا الأدوار بأنفسهم وكانت التجربة جميلةً. هذه كانت حكاية «القانون ختم وبرنيطة». كانت هذه المسرحية «من أجمل الأعمال في حياتي كلها، كما إنّها كانت الشرارة التي ألهمت أعمالي اللاحقة».